مجلّة «المشرق» بين الأمس واليوم (١٨٩٨-١٩٩٨)
إستمراريّة وتطوّرات

الأب كميل حشيمه اليسوعيّ *

منذ مائة سنة بالتمام، وفي مطلع الشهر الأوّل من العام ١٨٩٨، صدر بِكرُ أعداد مجلّة المشرق البيروتيّة بعد أن اتّخذ اليسوعيّون قرار إصدارها قبل خمس سنوات[١]. وكانوا قد خاضوا ميدان الطباعة والنشر في لبنان منذ نحو نصف قرن، إذ طبعوا كتابهم الأوّل بالعربيّة في بيروت العامَ ١٨٤٨ وأتبعوه بعد ذلك بعشرات من أمثاله[٢]، كما أنّهم باشروا إصدار صحيفة البشير في العام ١٨٧٠. إلاّ أنّ الرهبان شعروا بأنّ هذه الدوريّة وتلك المنشورات لم تكن كافية، ورأوا أنّ الحاجة ماسّة إلى ظهور مجلّة كاثوليكيّة واسعة الآفاق شاملة الموضوعات، تواكب حاجات العصر وتقف إلى جانب مثيلاتها العلمانيّة التي بدأت تتكاثر في بيروت والمشرق. ولعلَّ صدور المقتطف في العام ١٨٧٦ والهلال وصيفتها في ١٨٩٢، كان الحافز على إطلاق مبادرة اليسوعيّين[٣].

(*) مدير مجلّة المشرق ودار المشرق

(١) ثبت لنا، بعد مراجعة محفوظات الرهبانيّة اليسوعيّة، أنّ فكرة إنشاء المشرق تبلورت حوالى العام ١٨٩٢. راجع مقالنا: كميل حشيمه، «اليسوعيّون ومجلّة المشرق: تاريخ وأعلام»، المشرق، ٦٥ (١٩٩١)، ص ٩-١٠.

(٢) Sébastien Ronzevalle, S.J., *L'Imprimerie Catholique et son œuvre en Orient*, Beyrouth, 1903.

(٣) توقّفت المقتطف عن الصدور في آخر العام ١٩٥٢. أمّا الهلال فما زالت تصدر في العاصمة المصريّة، وهي الآن أقدم صحيفة عربيّة على قيد الحياة، تليها مباشرة مجلّة المشرق.

عشرة عقود من عمر المشرق انقضت، فلا بدّ من وقفة تأمُّل: لرفع آيات الشكر أوّلًا إلى العزّة الإلٰهيّة، فمنها كلّ بادرة خير ومنها فيضُ النِعَم التي نالتها مجلّتنا طوال حياتها المديدة. ثمَّ لا بدّ من هذه الوقفة لاستعراض المنجَزات، فيتشجَّع الخَلَفُ بما يراه من مآثر السلف، كما لا مندوحة عن مراجعة الماضي والتدقيق في طيّاته لتقويم العمل وإصلاح ما طرأ من خلل سعيًا للأفضل.

أوّلًا: مسيرة في أربع مراحل

إن استجلينا صفحات المشرق لِرَسْم صورتها في السنوات الغابرة، لاحظنا أنّ المجلّة مرّت بمراحل أربع، اتّسمت كلُّ واحدة منها بطابع مميّز سوف نستشفّه من خلال عرض سريع، ثمَّ ننتقل، في قسم ثان من مقالنا هذا، إلى التقييم والتقويم.

١ – المرحلة الأولى: مع الأب لويس شيخو (١٨٩٨–١٩٢٧)

إنطلق شيخو بالمجلّة وهو في الأربعين من عمره، موفور الهمّة، مكتمل العدّة الثقافيّة والعلميّة، وقد طار صيته بين الكتّاب والعلماء الشرقيّين منهم والمستشرقين. فأصدر صحيفته في البدايات مرّةً كلَّ خمسة عشر يومًا بهيئة كرّاس أنيق الطباعة تناهز صفحاته الثماني والأربعين، فتؤلّف في نهاية العام مجلّدًا ضخمًا بنحو ألف ومائتَي صفحة، مشفوعًا بفهارس منوّعة دقيقة، أحدها بمحتويات السنة مرتّبة بحسب تواريخ ظهورها، والآخر بأسماء كتبة المجلّة ومقالاتهم، والثالث بالمطبوعات التي ورد وصفها، والرابع والأخير لموادّ السنة مرتّبةً على طريقة حروف المعجم. وقد سار شيخو طوال حياته على أسلوب الفهرسة هذا ونهج خلفاؤه جميعًا النهج عينه حتّى يومنا. وظلّت المجلّة تصدر مرّتين في الشهر حتّى نهاية عامها العاشر، ثمّ راحت تصدر، مع حلول العام ١٩٠٨، مرّة واحدة في الشهر بحيث تبلغ صفحاتها السنويّة ألف صفحة.

أمّا هدف المجلّة المنشود وأسلوب العمل فيها فقد بيّنهما شيخو في

المشرق

مجلة كاثوليكية تصدر مرتين في الشهر بوسوم وتصاوير عند اللزوم

مجموعة مباحث علمية وأدبية وتاريخية

بادارة آباء كلّيّة القديس يوسف لصاحب امتيازها الاب لويس شيخو اليسوعي

السنة الاولى

١٨٩٨

قيمة الاشتراك ١٢ فرنكاً لبيروت و١٥ فرنكاً للخارج

طبع في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة ١٨٩٨

AL-MACHRIQ

REVUE CATHOLIQUE ORIENTALE BIMENSUELLE

Sciences — Lettres — Arts

Sous la direction des Pères de l'Université S^t^ Joseph

Paraissant le 1 et le 15 de chaque mois
en un fascicule de 48 pages, grand in-8°
avec illustrations selon les besoins du texte.

PREMIÈRE ANNÉE

1898

Prix de l'abonnement annuel: Beyrouth 12 francs — Union postale 15 francs.

BEYROUTH

Imprimerie Catholique

1898

(الصفحة الأولى من عدد المشرق الأوّل).

مقالته الافتتاحيّة[٤]، وممّا قاله: «إنّ اسم مجلّتنا الجديدة ينطق بنفسه عن غايتنا ويقوم مقام لائحة مطوّلة، إذ آثرنا باختياره أن نبيّن لأهل الوطن أنّ جلّ مرغوبنا التحرّي لكلّ الأبحاث المتعلّقة بالشرق والطوائف الشرقيّة ونفضّلها على سواها لئلّا يقال إنّ الغريب أدرى بما في البيت من أهله، لا سيّما ولا نزال نرى كثيرين من الأجانب يعكفون على تتبّع أخبار بلادنا واستبطان أحوالها». ولبلوغ هذه الغاية كانت خطّة أصحاب المجلّة «وضع المقالات التي رأيناها أنسب لفائدة العموم وأوقع لديهم مع تهيئة عدّة فقرات ونُبذ جامعة لشذور آداب الدنيا والدين ومصنّفات تاريخيّة وفنيّة ولغويّة وطبيعيّة وغير ذلك من المعارف لم نستثنِ منها سوى السياسيّة ومتعلّقاتها». وأضاف شيخو إلى ذلك رغبتَه في رفد المجلّة بما يصدر عند الغربيّين من شريف الأعمال والاكتشافات في جميع الميادين، ليقتدي بهم أبناء الشرق ويسيروا في معارج العمران والحداثة. واتُّخذ للمجلّة شعارٌ من الكتاب المقدّس هو الآية: «إنّ الله نور وليس فيه ظلام البتّة»[٥].

وما إن صدر العدد الأوّل من المشرق حتّى توارِدت على الإدارة رسائل المهنّئين والمنشّطين من كبار رجال الدين والدنيا وصفوة علماء البلاد والمستشرقين[٦]. ومن مظاهر تقدير العامّة والخاصّة وَفْرةُ المشتركين الذين سرعان ما ناهز عددهم الخمسماية بعد مدّة وجيزة، كما أنّ عدد المجلّات التي بادلت رصيفتها الجديدة زاد على الأربع والثلاثين في أوروبّا وأميركا، إضافةً إلى مجلّات البلاد الشرقيّة[٧].

إلّا أنّ الدولة العثمانيّة سعت غير مرّة لعرقلة سير المجلّة. وبالرغم

---

(٤) المشرق ١ (١٨٩٨)، ص ١-٤.

(٥) رسالة يوحنّا الأولى، ١/٥.

(٦) أطلب نماذج من تلك الرسائل في المشرق ١٨ (١٩٢٠)، ص ٢ و٣ باللغة الإنكليزيّة في آخر المجلّد. وثمّة مقتطفات ممّا كتبه مستشرقون بالإيطاليّة والفرنسيّة والألمانيّة. راطلب أيضًا: كميل حشيمه، «من رسائل الأدباء والمستشرقين إلى الأب لويس شيخو»، في المشرق ٦٤ (١٩٧٠)، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٧) شيخو، «عمل المشرق في ربع قرن»، المشرق ٢٥ (١٩٢٧)، ص ٩٢٧. Séb. Ronzevalle, *op. cit.*, p. 133-134.

من حياد أصحابها عن المسائل السياسيّة، فقد أُوقفت الصحيفة عن الصدور ثلاث مرّات لبعض عبارات لم يتنبه إليها شيخو أو غفل عنها المراقب قبل الطبع. بل صدر الأمر مرّة بتعطيل المشرق بدون أن يُعرَف السبب، فقضي على مديرها استئناف طلب الرخصة لإعادة إصدارها، ولم تعد المجلّة إلى الظهور إلّا بعد مضيّ شهرين وبتوسّط السفارة الفرنسيّة. وكان شيخو لا يجري إلّا «بكلّ حذر لئلّا يعثر القلم بإيراد بعض الألفاظ الملفاة من القاموس العثمانيّ كالحرّيّة والاستبداد والمَلِك ومُراد وحميد وغيرها كثير كما بيّنها المرحوم سليم سركيس في كتاب نوادره ظرائف المكتوبجي»[٨].

ويتابع شيخو قائلًا: «وكان آخر عهدنا مع الدولة التركيّة في خريف سنة ١٩١٤ وقد كاد يصدر العدد الأخير من المشرق لسنتها السابعة عشرة، فلم تنجزه إلّا بعد الحرب إذ أُقفلت مطبعتنا الكاثوليكيّة ووضع الأتراك يدهم على كلّيّتنا»[٩].

ولمّا وضعت الحرب أوزارها في نهاية ١٩١٨، أعدّ شيخو عدّته لاستئناف العمل وصدرت المجلّة في مطلع ١٩٢٠ منطلقةً بمجلّدها الثامن عشر، تُزوِّد القرّاء، على نحو ما فعلت سابقًا، المقالات الدينيّة والجدليّة والفلسفيّة والاجتماعيّة والأثريّة والأدبيّة واللغويّة والفنّيّة، وتفرد صفحات مطوّلة لمراجعة آخر ما يصدر من الكتب. كما أنّها تابعت خطّتها العزيزة على مؤسِّسها، وهي نشر المخطوطات القديمة التي تُعنى بشؤون الشرق. فممّا صدر من قديم النصوص ونال استحسان العلماء وشكرهم: في الفلسفة وعلم اللاهوت، نصوص لأبي قرّة وبولس الراهب وعبد يشوع ويحيى بن عديّ وحُنَين بن إسحٰق؛ وفي التاريخ كتابات لصالح بن يحيى وابن صاعد الأندلسيّ؛ وفي الأدب لابن مرزبان والثعالبيّ؛ وفي الشعر ديوانَيْ سلامة بن جندل والسموأل؛ وفي اللغة وفقهها كتبٌ للأصمعيّ

---

(٨) المشرق، ٢٥ (١٩٢٧)، ص ٩٢٧.

(٩) م. ن.

وأبي زيد الأنصاريّ ونور الدين الحُصَين. وما هذا إلّا غيضٌ من فيض.

أمّا الذين ساهموا في تحرير المجلّة فأربى عددهم على الثلاث مائة وجميعهم، إلّا في ما ندر، من ذوي الاختصاص المشهود لهم بسعة المعرفة وصرامة التدقيق في البحث. وإنّنا نذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، أبرزهم:

فمن رجال الإكليروس المطارنة أفرام الرحمانيّ الذي أصبح بطريركًا على السريان الكاثوليك، وجرمانس معقّد مؤسّس الجمعيّة البولُسيّة، وبولس سلمان صاحب المقالات العديدة في شؤون شرق الأردنّ، ويوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت الماروني، وعبدالله الخوري الماروني، وإقليمس يوسف داود السريانيّ، وأدّي شير الكلدانيّ. ومن الكهنة الخوري أسقف جرجس شلحت السريانيّ الحلبيّ، والمونسنيور يوسف العلم وله في المجلّة قصائد عديدة ومقالات فقهيّة، والآباء أدّي صليا أبرهينا العراقيّ، وإسحٰق أرملة السريانيّ المؤرّخ، وأنستاس الكرمليّ الذي حرّر عشرات المقالات في اللغة والأدب وأحوال الشعوب، وتوما أيّوب الحلبيّ، وقسطنطين الباشا المؤرّخ، وبطرس ورفائيل البستانيّ، وإسطفان البشعلانيّ الذي أنشأ عددًا من الروايات الأدبيّة، ولويس بليل المؤرّخ، وتيموثاوس جقّ، وإبراهيم حرفوش، وميخائيل الرجّي، وبطرس رفائيل، وعبد المسيح زهر، وبطرس ساره، وأنطونيوس شبلي، وسليمان صائغ الذي أصبح في ما بعد مطران الكلدان في الموصل، والشاعر الكبير الخوري يوحنّا طنّوس، وبطرس عزيز، ويوسف علوان المرسل اللعازريّ، ويوسف العمشيتيّ، وبطرس غالب، ومارون غصن، وبطرس فرج صفير، ويوحنّا مرتا من كهنة اللاتين في القدس، والأب أغسطينس مرمرجي الدومينيكيّ، وجرجس منش الحلبيّ.

ومن العلمانيّين، الأدباء والشعراء: الأمير شكيب أرسلان، حبيب إسطفان، مخائيل موسى ألوف، فؤاد أفرام البستانيّ، الشيخ أحمد تقيّ الدين، الشيخ سليم الدحداح، عبدالله رعد صاحب المقالات في أحوال

ولادة المجلّة، ومع ختام المجلّد الخامس والعشرين الصادر في نهاية العام ١٩٢٧، أسلم الأب لويس شيخو روحه إلى ربّه في السابع من كانون الأوّل (ديسمبر)، مطمئنًّا إلى ما قدّمت يداه من عمل مبرور مشكور كما بدا ذلك من خلال مقاله الجامع وتقويمه الشامل المعنون «عمل المشرق في ربع قرن»[١٣]. كان العمل هذا إنجازَ جبابرة حقًّا، لذا خصّصناه بالتفاصيل الموسّعة، لا سيّما أنّه وضع الأُسس التي استمرّت عليها المجلّة في مراحلها اللاحقة.

٢ - المرحلة الثانية: ١٩٢٨-١٩٥٠

خَلَفَ المؤسِّس في الربع القرن الثاني من حياة المشرق أربعة مديرين من رفاقه اليسوعيّين تعاقبوا حينًا وتناوبوا حينًا آخر. وأوّلهم كان المستشرق البلجيكيّ العلّامة هنري لامنس الذي تبوّأ منصبه مدّة ستّ سنوات، وتبعه الآباء رينه مُوترِد الفرنسيّ عالم الآثار، فالأب رُوبير شدياق اللبنانيّ، فالأب بُول كُورُون (Coron) مدير المطبعة الكاثوليكيّة، يعاونهم نفرٌ من العلمانيّين المثقّفين، أبرزهم تلميذ شيخو وصديقه العلّامة فؤاد أفرام البستانيّ. وقد أُتيح لكلّ من موترد والشدياق أن يتبوّأ الإدارة على دفعتَين، في حين تسلّم كورون منصبه في أواخر زمن الحرب الكونيّة الثانية فأصدر من المجلّة أربعة أعداد خاصّة بدت بحلّة مختلفة عن سابقاتها، وإخراج فنّيّ ملحوظ، وعدم انتظام في مواعيد ظهورها. أمّا ما خلا ذلك من الأعداد فلم يطرأ عليه شيء من التغيير في الشكل، إلّا أنّ عدد الصفحات السنويّة تدنّى إلى سبعمائة، ثمّ إلى نحو ستمائة وخمسين مع حلول العام ١٩٣٤، وصارت المجلّة آنذاك تصدر أربع مرّات في السنة[١٤].

---

(١٣) المشرق ٢٥ (١٩٢٧)، ص ٩٢٥ وما يليها.

(١٤) يلاحَظ أيضًا من جهة الشكل تطوّرٌ لا يخلو من دلالة. فلمّا كانت المقالات في المرحلة الأولى يلي بعضها بعضًا حيثما ينتهي في الصفحة، باتت في المرحلة الثانية لا تبدأ إلّا في مطلع الصفحة لتكون كلٌّ منها مستقلّة عن سابقتها. وذلك ينمّ على تحسين في الإخراج من جهة، وعلى تأكيد فرادة كلّ مقال من جهة أخرى.

AL-MACHRIQ REVUE ARABE · BEYROUTH

Nouvelle série. N° 1. JANVIER-MARS 1946

المشرق

مجلة عربية تبحث في الآداب والعلوم

تأسست في العام ١٨٩٨ سلسلة جديدة الجزء الاول . كانون الثاني ٢ ـ آذار ١٩٤٦

فهرس المواد

		صفحة
النهضة الشعرية الحديثة	بقلم لويس خليل	١
ليلة الميلاد ١٩٤٥	« يوسف غصوب	١٠
نصارى غسان والسريان	« الخوري اسحق ارملة	١٦
ابو الحسن التابعي	« الدكتور احمد فؤاد الاهواني	٣٧
نحن والذوق	« رشدي معلوف	٤٥
الشعر القائي العصري في تركية (تتمة)	« الاب روفائيل نخلة اليسوعي	٥١
نقد ومطالعة :		
الحرية – غلواء	« صبح التهوند	٦٣
خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا	« حبيب سيوفي	٧٢
على هامش المرقف الدولي	« لويس خليل	٧٨

المطبعة الكاثوليكية . بيروت . لبنان

(فهرس أحد أعداد المشرق في سلسلتها المؤقتة ١٩٤٤ – ١٩٤٦).

وطوال ربع القرن المذكور ظلّ هدف المشرق المعلَن ثابتًا، تنبئ به جملةٌ وجيزة مطبوعة على ظهر ورقة الغلاف تقول إنّ رائد المجلّة هو «خدمة لبنان وسائر البلدان الشرقيّة دينًا ولغةً وتأريخًا وثقافةً عامّة». وهذا ما تمّ بالفعل، إذ تطرّق المؤلّفون إلى جميع الموضوعات التي عُني بها سابقوهم في المرحلة الأُولى، مع ما توجَّب من تكييف يلائم متطلّبات العصر وروحه الجديدة. ومن هذا المنطلق قلّ عدد المقالات الجدليّة على نحو ملحوظ حتّى كاد أثرها يزول. وتلاشت أيضًا، أو كادت، المقالات العلميّة المبسّطة لأنّها لم تعد ضروريّة كما كانت في مطلع القرن حيث المدارس قليلة ووسائل التواصل نادرة. وعلى العكس، ازداد عدد المقالات التي تُعنى بالأدب والشعر الحديث والتاريخ والإسلاميّات وعلم الآثار والفنون ومنها السينما، واتّسمت بما تفرضه عليها شخصيّة كلّ مدير، إذ تُطبَع المجلّة بطابعه الخاصّ من حيث يدري أو لا يدري.

أمّا الكتّاب الذين لفتوا بمقالاتهم الأنظار في تلك المدّة، فمنهم مَن ورد ذكره قبلًا، لا سيّما فؤاد أفرام البستانيّ ريوسف غصوب في الأدب، وحبيب زيّات والآباء إسحٰق أرملة وأنطونيوس شبلي وهنري لامنس في التاريخ، والأمير موريس شهاب والأب رينه موترد في علم الآثار؛ ومنهم مَن جاء جديدًا، نخصّ بالذكر أغزرهم مادّةً أو أشهرهم صيتًا: المطران أغوسطين البستانيّ، الآباء الكهنة فريد جبر اللعازريّ (فلسفة)، أثناسيوس الحاج الباسيليّ الشويريّ (تاريخ)، لويس الخازن (فقه وتاريخ)، لويس خليل (تاريخ، أدب، اجتماعيّات)، بولس سباط (تاريخ)، منصور عوّاد (تاريخ)، نيقولاوس قادري (آباء الكنيسة)، بولس قرألي (آباء الكنيسة)، بولس مسعد (تاريخ).

وممّن برزت أسماؤهم من الأدباء غير رجال الدين: عثمان أمين، بطرس البستانيّ، محمود تيمور، جبرائيل جبّور، القانونيّ أنور حاتم، إدوار حنين، لحد خاطر، أمين خالد، يوسف أسعد داغر، حليم دمّوس، أسد وستم، محمّد أحمد طلس، الشاعر سعيد عقل، القانونيّ شكري القرداحي، كرم ملحم كرم، صلاح لبكي، رشدي المعلوف، صلاح الدين

المنجّد، رشيد نخله.

ونذكر من المستشرقين: رجيس بلاشير، إلياس جون جِبّ، جان ستاركي، جان سُوفاجِيه، يوسف شَخْت، غاستُون ڤِيت، إسطفان لِيڤي بروفنسال؛ ومن الآباء اليسوعيّين: فليكس سُوانيون، إسطفان لاتُور، أندره لُوجنِيسال وبولس مُوتِرد.

٣ - المرحلة الثالثة: ١٩٥١-١٩٧٠

في مطلع العام ١٩٥١ تسلّم الأب إغناطيوس عبده خليفة إدارة المشرق وظلّ في منصبه حتّى أوائل ١٩٧٠، إذ انتخب مطرانًا ونائبًا للبطريرك الماروني، فخلفه الأب كميل حشيمه لتصريف الأعمال حتّى نهاية العام، حيث قرّر رؤساء الرهبانيّة اليسوعيّة إيقاف المجلّة «حتّى إشعار آخر»، كما ورد في عدد السنة الأخير، ليتسنّى إعادة النظر في الأساليب والتوجّهات. إلّا أنّ الحرب المدمّرة التي عصفت بلبنان وأودت بحياة عدد غير قليل من اليسوعيّين، أجّلت إعادة الصدور حتّى سكوت المدافع وعودة بعض الهدوء في مطلع العام ١٩٩١.

وعندما تولّى الأب خليفة منصبه الجديد، كتب في مطلع العدد الأوّل من ١٩٥١ معلنًا برنامج المجلّة وقوامه التمسّك بالروح التي وجّهت المشرق سابقًا، مع المحافظة على معالجة الموضوعات المتخصّصة، وتَناوُل شؤون الساعة أيضًا لمساعدة المثقّفين «على اكتشاف وجهةٍ لهم في التفكير والحياة»[١٥]. وصدرت المجلّة ستّ مرّات في السنة بمجموع صفحات يُناهز السبعمائة وخمسين، وبدت بغلاف شرقيّ المظهر جميل حافظت عليه وما زالت حتّى يومنا هذا.

وقد تميّزت تلك الحقبة بظاهرة جديدة هي إدراج مقالات باللغة الفرنسيّة لبعض المستشرقين ممّا طبع المجلّة بطابع التخصُّص المركّز. وقد ساعد في ترسيخ تلك الظاهرة التوسُّع أحيانًا غير قليلة بحجم المقالات،

---

(١٥) المشرق ٤٥ (١٩٥١)، ص ٢.

فكانت صفحات بعضها الكثير تتعدّى السبعين، ولم يندر أن نُشِرَت في العدد الواحد دراسات ومخطوطات بحجم كتاب كبير[١٦]. وهذا ما اعتبره بعضهم خروجًا جزئيًّا على خطّ المجلّة التقليديّ لأنّه بمضاعفة الأحجام تقلّ فسحة التنوّع. وقد يكون هؤلاء على حقّ أو قد لا يكونون، فإنّما الأمور رهن مواقيتها.

ومهما يكن، فقد ساهم في رفد المجلّة بالدراسات القيّمة كوكبةٌ من العلماء بين رجال دين ودنيا، نذكر بعضهم: الآباء فرنسيس اليسريّ (طقوس وعقيدة)، يوسف حتّي (فقه كنسيّ)، مخايل ضومط (فلسفة)، أنطون طربيه (عقيدة)، أنطون حميد موراني (فلسفة)، وهؤلاء الخمسة أصبحوا لاحقًا أساقفة من أحبار الكنيسة المارونيّة. وكذلك الآباء إسحٰق أرملة (تاريخ)، لويس بليبل (تاريخ)، مبارك ثابت (تاريخ)، ميشال الحايك (تاريخ، أدب، إسلاميّات)، يوسف حبيقة (لغة سريانيّة وتاريخ)، مخايل الرجّي (تاريخ وطقوس)، بطرس ساره، إغناطيوس سركيس، أنطونيوس شبلي، أنطوان ضوّ (كتبوا جميعُهم في التاريخ)، نيقولاوس قادري (نصوص الآباء)، يوسف قوشاقجي (ترجمة الكتاب المقدّس).

ومن الآباء اليسوعيّين: جاك بلاسّار (علم الفلك)، موريس تالون (آثار)، فرديناند توتل (أدب، تاريخ، اجتماع)، كميل حشيمه (أدب)، جان دانيلو الذي أصبح كردينالًا في ما بعد (عقيدة)، ڤيكتور شلحت (فلسفة)، كارلوس شدّ (تاريخ)، جان كابلُّوس (عقيدة)، فرنان دِه لانڤرسان (عقيدة)، أندره لوجيـال (شؤون اجتماعيّة)، جان مِصريان (عقيدة وشؤون أرمنيّة)، رفائيل نخله (لغة وأدب). وكانت بالطبع حصّة الأسد للأب خليفة الذي دبّج بضع عشرة مقالة عالج فيها شؤون بين فكريّة

---

(١٦) مثلًا: مقال ميشال حايك: «الراهبة هنديّة»، المجلّد ٥٩ (١٩٦٦)، ص ٥٢٥-٧٣٤ (٢١٠ صفحات)؛ مقال إميل أبي نادر: «الخوري حنّا طنّوس»، المجلّد ٦١ (١٩٦٧)، ص ٦٤٧-٧٧٨ (١٣٢ صفحة)؛ مقال الأب إغناطيوس عبده خليفة: «كتاب العلم الطبيعيّ ليوسف بن شمعون الحصرونيّ المارونيّ»، المجلّد ٦٢ (١٩٦٨)، ص ٤٩٣-٨٩٤ (٤٠٠ صفحة ونيّف).

واجتماعيّة ولاهوتيّة، بالإضافة إلى نَشْره عددًا كبيرًا من المخطوطات، معظمها يمتّ إلى التصوّف الإسلاميّ.

ومن العلماء والأدباء غير الإكليريكيّين نذكر من أبناء الشرق: ألبير زكي إسكندر (الطبّ عند العرب)، عادل أنبوبا (الرياضيّات عند العرب)، فؤاد أفرام البستانيّ (أدب)، لحد خاطر (تاريخ)، حبيب زيّات (تاريخ)، كوركيس عوّاد العلّامة العراقيّ (ببليوغرافيا وخزائن الكتب)، بشر فارس (فنون إسلاميّة)، ماجد فخري (فلسفة إسلاميّة)، رياض المعلوف (شعر وتاريخ)، عيسى إسكندر المعلوف (تاريخ وتراث)، جرجي إبراهيم نصر (تَراجم أعلام لبنانيّين)، عثمان يحيى (تصوّف إسلاميّ)، يوسف إبراهيم يزبك (تاريخ).

ومن المستشرقين الأب ألبير ڤان دِن برانْدِن (كتابات عربيّة قديمة)، شارل بِلّا، وكان يكتب بالعربيّة مباشرةً (أدب عبّاسيّ)، الأب توما بُوا الدومينيكيّ (أحوال الأكراد واليزيديّين)، بيار رُونْدُو (اجتماع)، مارتِينيانُو رُونكالّيا (تاريخ الأقباط وعقيدتهم)، الأب جان ستاركي (الديانات السامية).

٤ - المرحلة الرابعة: ١٩٩١ -...

عادت المشرق إلى الصدور في العام ١٩٩١ بعد توقّفها القسريّ الذي لمّحنا إليه في مطلع الفقرة السابقة، وصادف رجوعها إلى النور حلول مناسبتَيْن مهمّتَيْن، إذ كانت الرهبانيّة اليسوعيّة تحتفل في تلك السنة بمرور ٤٥٠ عامًا على تأسيسها و٥٠٠ عام على مولد مؤسِّسها القدّيس إغناطيوس دِه لُويولا. فانتهزت الإدارة الجديدة الفرصة لإصدار عدد مميّز أربت صفحاته على الخمسمائة (٥١٨ بالتمام)، وأُفردت فيها مقالات خاصّة بالمناسبات الثلاث، بالإضافة إلى موضوعات أُخرى فكريّة وتاريخيّة واجتماعيّة وأدبيّة وفلسفيّة، إلى معالجة شؤون مسكونيّة وإسلاميّة، وتعريف موسَّع بمؤلّفات حديثة تطرّقت إلى شؤون حسّاسة. فبدا ظاهرًا منذ الانطلاق أنّ المجلّة كانت «مؤمنة بأهمّيّة الاستمرار على

خطّة السلف، لما نجم عنها من ثمار وافرة أثقلت آلاف الصفحات على مدى اثنين وسبعين عامًا، وبضرورة شقّ سبل جديدة في الأسلوب والمضمون تُطوِّر القديم وتكمّله»[١٧].

وأضاف لسان حال المجلّة موضحًا الخطّة التي رُسِمت لها: «فلا بدّ أوّلًا أن تحافظ المشرق على ما ثبّته الدهر في نهجها القديم، وستظلّ مجلّة ثقافيّة جامعة تُعنى بشؤون الدين والدنيا، لا سيّما ما هو منوط بالشرق، تعالج الأدب والتاريخ واللغة والفنون والعلوم وتنشر المخطوطات المغمورة. وهي في كلّ ذلك إنّما تسعى إلى ملاحظة واقع الحياة الدينيّة والثقافيّة والاجتماعيّة وظواهرها، فتحلّل التيّارات والتطوّرات، وتبدي الرأي وتتّخذ الموقف. وإلى ذلك ستجتهد في ترقّب علامات الأزمنة لاستجلاء المستقبل والمساهمة في تشييد بنائه، معتمدةً دائمًا أبدًا سابق شعارها: «إنّ الله نورٌ وليس فيه ظلمةٌ البتّة»، مستندةً إلى الحوار أكثر منها إلى الجدال، مؤثرةً الانفتاح والخروج إلى الآخرين على الانزواء والاكتفاء بالذات»[١٨].

وبالفعل سارت المجلّة في سنواتها السبع الأخيرة (١٩٩١-١٩٩٧) بموجب البرنامج هذا والروح هذه، وتجلّى انفتاحها بادرة جديدة في ما يتعلّق بإدارتها. فقد بقي للمشرق مدير، هو كاتب هذه السطور، ولكن وقف إلى جانبه رئيس تحرير، هو الأب سليم دكّاش، ويعاونهما أمين سرّ وهيئة واسعة من المستشارين يُعوَّل عليهم باستمرار. وهذه الهيئة تشمل اثني عشر عضوًا نصفهم من اليسوعيّين ونصفهم الآخر من الشخصيّات الأكاديميّة البارزة في جامعات مختلفة، كما أنّ المستشارين ينتمون إلى لبنان وسورية ومصر، وهي الدول الثلاث التي يشملها إقليم الشرق الأدنى في الرهبانيّة اليسوعيّة.

وعلى نحو ما رُوعِي التنوّع في تشكيل هيئتَي الإدارة والاستشارة،

---

(١٧) المشرق ٦٥ (١٩٩١)، ص ٣-٤.
(١٨) م.ن.، ص ٤.

سهر المعنيّون على تنويع مصادر المقالات، فتعدّدت جنسيّات المؤلّفين وانتماءاتُهم الفكريّة والمذهبيّة. وقد أجرينا حول هذا الأمر إحصاءًا طريفًا نرى أنّه لا يخلو من فائدة على غير صعيد. وفي ما يلي نتائجه:

توزيع المؤلّفين بحسب فئاتهم وأعدادهم

المؤلّفون	من ١٨٩٨ إلى ١٩٧٠ (٦٤ مجلّدًا)	من ١٩٩١ إلى ١٩٩٧ (٧ مجلّدات)
اليسوعيّون الشرقيّون...	٢٦=٤,٢٥٪	١٦=٢١,٦٢٪
اليسوعيّون الغربيّون أو المستشرقون	١٠٢=١٦,٦٣٪	٢٠=٢٧,٠٣٪
كهنة آخرون شرقيّون...	١٦١=٢٦,٢٧٪	٧=٩,٤٦٪
كتّاب شرقيّون مسيحيّون...	٢١٤=٣٤,٩١٪	١٥=٢٠,٢٧٪
كتّاب شرقيّون مسلمون...	٣٨=٦,٢٠٪	١٣=١٧,٥٧٪
كتّاب مستشرقون...	٧٢=١١,٧٤٪	٣=٤,٠٥٪
المجموع...	٦١٣=١٠٠,٠٠٪	٧٤= ١٠٠,٠٠٪

ويدعونا هذا الجدول إلى إبداء جملة من الملاحظات:

أ - كانت حصيلة نسبتَيْ اليسوعيّين الشرقيّين والمستشرقين توازي في الحقبة الأُولى ٢٠,٨٨ بالمائة من المجموع، في حين ارتفعت إلى ٤٨,٦٥ بالمائة في الحقبة الثانية. وهذا الارتفاع قابله بالطبع تدنٍّ في نِسَب ثلاث من الفئات الأُخرى: الكهنة الشرقيّون، الكتّاب الشرقيّون المسيحيّون، المستشرقون. وهذا الأمر طبيعيّ. فالإكليريكيّون كانوا يكثرون الكتابة في المشرق مطلعَ القرن وحتّى منتصفه لأنّ المجلّات المعنيّة بالشأن المسيحيّ ذات المستوى كانت قليلة، أمّا اليوم فزاد عددها زيادةً ملحوظة لا سيّما بهمّة الرهبانيّات الشرقيّة و«الرابطة الكهنوتيّة». وكذلك صار لغير الإكليريكيّين إمكانيّة النشر في عدد كبير

من المجلّات الرفيعة المستوى التي تصدر عن الجامعات وسائر الهيئات الفكريّة والثقافيّة.

ب- وعلى العكس يُلاحظ ارتفاع نسبة اليسوعيّين الشرقيّين، وهو أمر يفسَّر في ضوء تشديد الرهبانيّة اليسوعيّة المتزايد على الانخراط في الثقافة العربيّة عامّة والمشرقيّة خاصّة.

ج - من منطلق انفتاح الرهبانيّة المتنامي على الثقافة العربيّة والإسلاميّة يُفهم ارتفاع نسبة الكتّاب المسلمين في المجلّة. وما شرعت به المشرق منذ سبع سنوات، لا بل قبل ذلك، يحاكي توجيهات الإرشاد الرسوليّ التي رسمها قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني للمسيحيّين اللبنانيّين، ومن خلالهم لجميع المسيحيّين المشرقيّين، لينفتحوا ويساهموا مع إخوانهم المسلمين في بناء وطن مشترك وثقافة مشتركة.

د - زيادةً على ما ورد في الجدول، تجدر الإشارة إلى أنّ الكتّاب الثلاثة والسبعين الذين ساهموا أخيرًا في تحرير مقالات المشرق ينتمون إلى ستّ عشرة دولة: الأردنّ، إسبانيا، إيطاليا، بلجيكا، تشيلي، سورية، العراق، فرنسا، فلسطين، لبنان، مالطا، المجر، مصر، نيجيريا، هولندا، الولايات المتّحدة الأميركيّة. وهذا بدون شكّ دليل انفتاح وشموليّة.

هـ- وأخيرًا، لاحظنا من جرّاء الإحصاء ظاهرة جديدة اتّسمت بها المجلّة في طورها الأخير، وهي دخول العنصر النسائيّ بكثافة في صفوف محرّريها. فقد رصدنا أسماء سبع سيّدات، وجميعهنّ من حملة الشهادة الجامعيّة الأعلى، في حين لم نسجّل في المراحل الثلاث الأُولى سوى اسمَيْن فقط[١٩]. وهذه الظاهرة الجديدة هي أيضًا من علامة العصر عامّة ومن مواصفات المشرق الجديدة خاصّة.

---

(١٩) السيّدة الأولى هي الراهبة كليمنتين خيّاط، روت حوادث جرت في عين إبل - جنوب لبنان - في المشرق ١٨ (١٩٢٠)، ص ٧٧٩ وما يليها؛ والثانية هي روز حاوي، كتبت عن «الملكات العربيّات قبل الإسلام»: م.ن. ٤٢ (١٩٤٨)، ص ٢٨٩ وما يليها.

ومن الظواهر الجديدة التي اتّسمت بها المرحلة الأخيرة إصدار أعداد خاصّة يركّز فيها على محور معيّن أو ما يُعرف أيضًا بالملفّ. فبالإضافة إلى ملفّ السنة الأولى الخاصّ بالرهبانيّة اليسوعيّة، كان ثمّة ملفّات عن حقوق الإنسان (١٩٩٢)، الدين (١٩٩٣)، الرسالة البابويّة يهاء الحقيقة (١٩٩٤)، التربية (١٩٩٥)، اللغة العربيّة (١٩٩٦)، علم لاهوت الأديان (١٩٩٦).

تلك كانت جولتنا عبر المراحل التي مرّت بها المشرق، تجلّت لنا من خلالها الخطّة التي سارت عليها، والأقلام التي حبّرت صفحاتها، وما طرأ عليها من تغيّر أو تحسين أو تجديد. يقي لنا أن ننظر الآن مليًّا إلى مضامينها، وكيف عُولجت، وما ظهر فيها، هي أيضًا، من تطوّرات.

ثانيًا: معالمُ أساسيّة وتقويم

جميع الذين تعاقبوا على إدارة المشرق أصرّوا على التزامهم النهجّ الذي رُسم في البداية، فأعلنوا أنّهم سيتناولون، في أبحاث المجلّة، كلّ ما يمتّ إلى قضايا المشرق خاصّةً، ماضيه وحاضره، لإعلاء شأن الثقافة في البلاد، بالإضافة إلى بناء صرح الإيمان وتثبيت المُثُل الأخلاقيّة العُليا. فكيف عالجوا تلك الشؤون، وهل أفلحوا؟

للإجابة عن هذا السؤال المزدوج، ولتسهيل التقويم، سنجمع الموضوعات التي خاضت فيها المجلّة، في أقسام أربعة نرى أنّها تشمل الكلّ وتختصره، وهي: اللغة العربيّة؛ فنشر المخطوطات العربيّة القديمة لا سيّما المسيحيّة منها؛ فالآداب والعلوم كافّة: من أدب، وتاريخ، وعاديّات، ورحلات ثقافيّة، وعلوم طبيعيّة واقتصاديّة، وفنون؛ فالعلوم الدينيّة والفلسفيّة وما يواكبها من تيّارات فكريّة تتعلّق بجوهر الإنسان وتطلّعاته الروحيّة.

١ - «المشرق» واللغة العربيّة

شغُف مؤسّس المشرق، منذ حداثته، بلغة الضاد، ولا عجب فهو

ابن ماردين من أعمال ديار بكر، القبيلة العربيّة العريقة التي دانت مدّةً بالمسيحيّة. وعلى الرغم من أنّ أبناء منطقته كانوا بمعظمهم ينطقون بالسريانيّة إلى جانب العربيّة، وعلى الرغم من محاولات التريك التي كانت السلطات العثمانيّة تلجأ إليها بين الحين والحين، إلّا أنّ شيخو شعر وهو لا يزال يافعًا بأهمّيّة العربيّة وما تحمله من غنى تراثيّ، وما كان للمسيحيّين في تاريخها من دور لا يمكن التغاضي عنه. لذلك اضطلع، وهو طالب شابّ في الرهبانيّة، بمسؤوليّات تربويّة دفعته إلى تدريس اللغة العربيّة وآدابها في ثانويّة اليسوعيّين ببيروت، وقد ألّف آنذاك، من جملة الكثير الذي ألّفه في حقل لسان سيبويه، كتاب قواعد أسماه نزهة الطرف في مختصر الصرف[٢٠]، وكتابًا آخر لخدمة المستشرقين، حرّره باللاتينيّة وبالاشتراك مع الأب ألفريد دُوران اليسوعيّ – Durand[٢١].

وعليه، فكان من الطبيعيّ أن ترفع المشرق لواء لغة العرب وتذود عن حياضها. وممّا يلفت النظر أنّه لم تكد المجلّة تصل إلى منتصف سنتها الأولى حتّى كتب شيخو مقالًا بعنوان «دَرْس العربيّة» فنّد فيه بشدّة مزاعم الذين يتّهمون اليسوعيّين بأنّهم لا يشجّعون دراسة العربيّة[٢٢]. وبعد مدّة، صنّف مقالًا آخر عنوانه «اللغة العربيّة في مدرستنا الكلّيّة»[٢٣]، سار فيه على المنوال نفسه، وذكر عددًا كبيرًا من الأدباء المرموقين خرّيجي المعهد المذكور. وفي السنة عينها نشر صديق اليسوعيّين وأستاذ العربيّة عندهم، المعلّم رشيد الشرتونيّ، سلسلة مقالات أسماها «محادثة لغويّة»، قارع فيها، نِدًّا للنِدّ، إمام الضاد الشيخ إبراهيم اليازجيّ[٢٤].

---

(٢٠) طبع في بيروت العام ١٨٨٥ (٦٨ صفحة).

(٢١) *Elementa grammaticae arabicae, cum chrestomatia, lexico, variisque notis*, Beyrouth, 1896.

(٢٢) المشرق ١ (١٨٩٨)، ص ٦٩٩-٧٠٤؛ وانظر ص ٤٤٠-٤٤٨ مقال الأبوين هنري لامنس وأنستاس ماري الكرمليّ يدقّقان من خلاله في بعض المعرّبات. وانظر أيضًا القواعد الصارمة التي وضعها لامنس لنقل الأعلام الأجنبيّة إلى العربيّة (المشرق ٤: ٧٧٥-٧٧٨).

(٢٣) م.ن. ٥ (١٩٠٢)، ص ٩٢٣-٩٣٢.

(٢٤) م.ن. ٥ (١٩٠٢)، ص ٣٢٢-٣٢٦، ٣٧٢-٣٧٥، ٤١٩-٤٢٢، ٤٧٢-٤٧٥.

ولم تكتفِ المجلّة بانتهاج خطّة الدفاع، بل كانت تسلك أيضًا طريق الإيجاب فتحثّ على حبّ العربيّة وتبيّن السبل إلى تحسينها. ومن مقالاتها البارزة في هذا الباب واحدةٌ من تأليف الحكيم أمين الجميّل، جدّ رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة الحامل اسمه، عنوانها «الرأي العامّ في عثرات الأقلام»[٢٥] ودعا فيها، بقلم لم يتعثّر وأسلوب ناصع، إلى حبّ اللغة العربيّة حبًّا مخلصًا. ولحقه شيخو بعد أشهر معدودة فكتب، تحت عنوان «الوسائل لترقية العربيّة»[٢٦] مقالًا دعا فيه إلى التمسّك بالتقليد مع مراعاة جانب التطوير. وممّا طالب به إنشاء مجمع لغويّ يُصدر نشرةً له رسميّة، وقاموسًا شاملًا يُمحّص فيه الدخيل والمعرَّب، ويُقِرّ مفردات اصطلاحيّة للعلوم العصريّة، ويراقب استعمال المتكلّمين فينبذ السقيم ويقبل السليم المستساغ، «فلكلّ زمان كلام واستعمال» و«لنا أسوة في القرآن نفسه «العربيّ المبين» الذي لم يأنف من استعمال عدّة لغات غير لغة قريش بلّغها أبو بكر الواسطيّ في كتابه الإرشاد خمسين لغةً» (ص ١٠٥٠). وبعد بضع سنوات حذا حذو شيخو من هذا القبيل الأديب إدوار مرقص، عضو المجمع العلميّ العربيّ بدمشق، فانتقد بشدّة الأديب حسن الشريف الذي تجرّأ بمقال له في مجلّة الهلال القاهريّة أن يدعو إلى تبسيط قواعد الجدود تبسيطًا رأى مرقص أنّه مجحف بحقّ العربيّة[٢٧].

وممّا تجلّى فيه حبّ المشرق العربيّة الناصعة، دفاعُها عنها في وجه مَن سعوا إلى إحلال العاميّة مكانها، منهم الخوري مارون غصن الذي عُرِفَ، مع ذلك، بكتاباته الكثيرة بالفصحى. فانبرى له الأب أنطون صالحاني وقارعه بمقال أسماه «خطر جسيم أو اللغة العاميّة»[٢٨] بيّن فيه تناقضات الخوري المذكور، منها أنّه اضطُرّ إلى الكتابة بالفصحى ليعلن مشروعه على الملأ فيفهموه! وبعد أيّام معدودة نهض شيخو أيضًا وانتقد

---

(٢٥) المشرق ٢٠ (١٩٢٢)، ص ٤٩٥-٥٠٠.
(٢٦) م.ن ٢٠ (١٩٢٢)، ص ١٠٤٣-١٠٥١.
(٢٧) م.ن. ٣٧ (١٩٣٩)، ص ١-١٢.
(٢٨) م.ن. ٢٣ (١٩٢٥)، ص ١٣١-١٤٣.

الخوري غصن بمقال عنوانه «حقوق اللغة العاميّة بإزاء اللغة الفصيحة»، وممّا قاله في ختام مقاله مخاطبًا العامّة: «إنّ اللغة الفصيحة أقرب إليكم من قاب قوسين (...) وهاكم تسمعون كلّ يوم قراءة الإنجيل باللغة الفصيحة ولا أحد منكم يطلب أن يُقرأ باللغة العاميّة، وتتلون كلّ صلواتكم باللغة الفصيحة...»[٢٩].

إلّا أنّ المشرق لم تستنكف من أن تكبّ على العاميّة بصفة كونها ظاهرةً حضاريّةً لا بدّ من الالتفات إليها ودَرْسها. لذا نشرت في أوّل عهدها مقالًا للمستشرق الألمانيّ مارتن هَرْتْمَن بيّن فيه «أهمّيّة جمع خواصّ الكلام الدارج» (المشرق ١: ٧٩٠)، ثمّ بعد نحو ثلاثين سنة، مقالًا للأديب الشهير توفيق يوسف عوّاد درس فيه الشعر العاميّ وعروضه ومزاياه وقيمته، وافيًا إيّاه حقّه المشروع[٣٠]. وكذلك لم تَرَ حرجًا في أن تُثبت دراسةً للأديب الرصين يوسف غصوب عرض من خلالها مشروعًا لتحسين الأبجديّة العربيّة[٣١]، قوامه تفكيك الحروف المطبعيّة بعضها عن بعض ورسم كلّ حرف منها على حدة شأن الأحرف في معظم لغات العالم. ومن مزايا هذه الطريقة تنقيص عدد الأحرف لأنّ «أشكال الأحرف العربيّة لا تنقص عن ١٥٠٠ شكل بين أحرف أوّليّة، وأواخر، وأواسط، وحركات، وضوابط، إلخ». إلّا أنّ المجلّة لم تذهب إلى أبعد من تلك الاقتراحات. ولمّا حاول بعضهم الإيغال والمطالبة باتّخاذ الحروف اللاتينيّة لرسم الكتابة العربيّة، ومنهم أحد أعضاء مجمع فؤاد الأوّل للغة العربيّة، عبد العزيز فهمي باشا، في جلستَي ذلك المجمع يومَي ٢٤ و٣١ يناير ١٩٤٤، لم توافقه المشرق. وكتب أحد مسؤوليها آنذاك، الأب لويس خليل، مقالًا نقديًّا بيّن فيه، بالاستناد إلى محمود تيمور بك والشيخ عبدالله البستانيّ، وبأسلوب علميّ دقيق، عدم جدوى التخلّي عن الأبجديّة العربيّة العريقة التي ليست من الصعوبة على النحو الذي يتخيّله

---

(٢٩) المشرق ٢٣ (١٩٢٥)، ص ١٦٠-١٧١.

(٣٠) م.ن. ٢٨ (١٩٣٠)، ص ٤٣٦-٤٤٣، ٥٠١-٥٠٨.

(٣١) «إصلاح الأبجديّة العربيّة»، م. ن. ٢٨ (١٩٣٠)، ص ٢٩-٣٤.

المتشائمون[٣٢].

فالواضح من كلّ ما سبق أنّ المشرق أبلت البلاء الحسن في الدفاع عن نصاعة لغة الضاد، وسعت إلى ترقيتها مع مراعاة جانب تراثها التليد. وهل هذا الأمر بغريب عن مجلّة كان من أركانها لويس شيخو محقّق فقه اللغة للثعالبيّ، وأنطون صالحاني صاحب أجود تحقيق لديوان الأخطل، ولويس المعلوف واضع المنجد، أشهر معجم عصريّ للغة العربيّة؟

٢ - «المشرق» ونشر المخطوطات العربيّة

لم تعمد الدوريّات الثقافيّة العربيّة قبل شيخو إلى نشر المخطوطات على نحو ما راج في الغرب، فكانت المشرق سبّاقة في هذا المجال. ذلك بأنّ اهتمام شيخو البالغ بجمع المصنّفات للخزانة الشرقيّة التي أنشأها في بيروت، جعله يلمس لمس اليد ما تكتنزه الخبايا من ثروات دُفنت في بطون المخطوطات، فأراد إبرازها إلى النور. وما كانت تمضي أسابيع معدودة من حياة مجلّته حتّى ينشر فيها، هو أو زملاؤه، مخطوطًا ثمينًا. وقد صدر في المشرق منذ إنشائها أكثر من مائتين وستّين مخطوطًا بعضه بحجم كتاب يظهر متسلسلًا على دفعات ثمّ يطبع كاملًا، وسرعان ما ينفد. وكان شيخو يركّز على المخطوطات التي ألّفها مسيحيّون عرب أو التي تُعنى بالشأن المسيحيّ، فاستطاع بذلك أن يساهم مساهمة فعّالة في تبديل نظرة العامّة والخاصّة إلى دور المسيحيّين في الآداب العربيّة منذ القدم وعُمق تأثيرهم فيها.

وإذا ما ألقينا نظرة إلى أنواع المخطوطات المنشورة وجدناها تتوزّع بحسب الفئات التالية: المخطوطات الفلسفيّة: ٢٥؛ المخطوطات التاريخيّة: ٥٤؛ الأدبيّة: ٨٦؛ الدينيّة: ٩٩. وجدير بالذكر أنّ بين المخطوطات الدينيّة ٨٧ تهمّ المسيحيّة، و١٢ تتعلّق بالإسلاميّات، وهذه الأخيرة كلّها لم تصدر إلّا بدءًا من الخمسينيّات لمّا تسلّم الأب خليفة زمام

---

(٣٢) المشرق، السلسلة الجديدة، كانون الأوّل ١٩٤٤، ص ٣-١٦.

الإدارة. والانفتاح، على هذا الصعيد، واضح.

وما يلفت الانتباه في عمليّة النشر التي قامت بها المشرق، أنّ المجلّة سلكت فيها مسلك العلم الحديث مع ما يفترضه من مقارنة روايات المخطوط وإثباتها، وفكّ ما استعجم بالعودة إلى القرائن التاريخيّة والنصّيّة. وقد أشاد أحد كبار العلماء، الأب أوغسطين مرمرجي الدومينيكيّ، بتميّز المشرق هذا في مقال له بعنوان «طريقة في العلم مُعيبة» ندّد بأساليب بعض الناشرين المصريّين الذين لا يكلّفون أنفسهم جهد البحث الرصين فيسرقون جنى أتعاب سواهم، وحَثّهم على تبنّي الطريقة العلميّة التي ينتهجها في المشرق اليسوعيّون من أمثال الأب لامنس[٣٣].

وما دمنا في موضوع التزوير، وهو يتنافى والروح العلميّة التي سعت المشرق إلى أشاعتها في البلدان العربيّة، فقد شنّت المجلّة، كلّما سنحت الفرص، حملاتٍ قاسيةً على الناحلين. وأوّل سهم أُطلق كان على يد شيخو يوم كتب مقالًا عنونَه «نظر انتقاديّ في المطبوعات المصريّة»[٣٤]، ثمّ عقبه سهم ثانٍ في مقال بعنوان «الآداب العربيّة منذ نشوب الحرب العموميّة»[٣٥]، وكانت الطعنة الثالثة مقالة مرمرجي المذكورة. وبعد نحو خمسة عشر عامًا هبّ العلّامة حبيب زيّات، الشهير بمؤلّفاته الموثّقة، يفضح سطو بعض مدّعي العلم على أعماله[٣٦]. ولم تمضِ سنوات قليلة أُخرى حتّى اضطُرّ أحد المداومين على الكتابة في المشرق، المؤرّخ الأب أنطونيوس شبلي الراهب اللبنانيّ، إلى التشهير بانتحال اثنين من مؤلّفاته، فحرّر في ذلك مقالةً عنوانها: «معارضة نصّ كتابيّن مخطوطَيْن بنصّ كتابيّن مطبوعَيْن»[٣٧]. وبعد استعادة المشرق مسيرتها في مطلع التسعينيّات طفح الكيل بكاتب هذه الأسطر، إذ شاهد بضعة عشر من إصدارات الدار التي

---

(٣٣) المشرق ٢٩ (١٩٣١)، ص ٣٣٣-٣٤٠.
(٣٤) م.ن. ١١ (١٩٠٨)، ص ٤٣٤-٤٤٠.
(٣٥) م.ن. ١٨ (١٩٢٠)، ص ٤٨٩، المقطع الثالث.
(٣٦) «نشر السرقات الأدبيّة سرقات المعلّمين»، م.ن. ٤١ (١٩٤٧)، ص ٤٣٧-٤٤١.
(٣٧) م.ن. ٤٧ (١٩٥٣)، ص ٦٦-٧٧.

تَنشر المشرق تُنهَب وتُطبع في عدد من البلدان العربيّة والمجاورة، فألّف مقالةً موثّقة فضح من خلالها السارقين وسرقاتهم[٣٨]. ويبدو أنّ تكاتف المشرق وعددٍ من نظيراتها في مصر ولبنان حول هذه القضيّة كان له بعض الأثر في تنبيه الرأي العامّ إلى خطر تلك الآفة، فقد خفّ تواترها بعض الشيء، إلّا أنّ الجرثومة متأصّلة، ويا للأسف، في نفوس بعض الناشرين والكتّاب الشرقيّين وفي ضمائرهم، هذا إن بقي عندهم ضمير[٣٩]!

٣ - «المشرق» بإزاء الأدب والعلم والفنّ

لمّا انطلقت المشرق في غاية القرن التاسع عشر، كان العصر لا يزال عصر انتقال. فالنهضة العربيّة لم تكن اكتملت بعد، إن في المجال العلميّ أو على الصعيد الأدبيّ. ولمّا كانت مجلّة شيخو وليدة عصرها، فقد تأثّرت حتمًا بأساليبه الأدبيّة ونظرته إلى العلم.

أ - فإن طلبنا المقالات التي تبحث في الأدب، بمعناه الحصريّ الحديث[٤٠]، لفت نظرنا بعض الأمور:

أ.١ - توجّهت المشرق أكثر ما توجّهت لا إلى الأدب الصرف، بل إلى تاريخ الأدب. فمؤسّسها وغالبيّة معاونيه كانوا رجال علم وبحث لا يهتمّون بالإبداع الخياليّ بقدر ما يلتفتون إلى دَرْس الوقائع ونقدها وتصنيفها. من هنا تُفهم دراسات شيخو المستفيضة في «تاريخ الآداب العربيّة» و«النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة»، والمقالات العديدة التي كتبها في السنوات المتأخّرة الأب فردينان توتل حول الحركة الفكريّة في بعض البلدان العربيّة، أو عشرات الدراسات التي قام بها

---

(٣٨) عنوان المقالة: «هل نترحّم على حقوق المؤلّفين في شرقنا؟»، المشرق، ٦٦ (١٩٩٢)، ص ٦٧-٧٤.

(٣٩) أطلب المشرق ٧٠ (١٩٩٦)، ص ٢٤١-٢٤٧ حيث التنديد بسرقة كتابَيْن من كُتب دار المشرق، أحدهما لكاتب هذا المقال. وثمّة سرقات أُخرى ضُبطت في العام ١٩٩٧، والحبل على الجرّار!

(٤٠) تعني هنا بالأدب لا الآداب عامّةً وما تشمله التسمية من معارف وعلوم، بل ما كان منه مستظرفًا كالشعر، والمؤلّفات النثريّة التي تُعنى بالرواية والمسرح والنقد والخواطر والرحلات وتسعى إلى سكبها في قالب يراعي الجماليّات.

الباحثون في عدد كبير من مظاهر الحياة الأدبيّة[٤١].

أ.٢ - في كلّ مرّة نشرت المشرق مقالات أدبيّة صرفة، كانت بنتَ عصرها، تجري في بداياتها مجرى التقليد، وتتحرّر، بمرور الزمن، مع مَن تحرّر من الأدباء. فالقصائد القليلة التي ظهرت على صفحاتها في سنيها الأوّل، كانت، على الرغم من مستواها اللغويّ الرفيع وسموّ معانيها، تمتّ في معظمها إلى شعر المناسبات[٤٢]. لكنّ الإدارة التي خلفت شيخو راعت التطوّر والظروف المستجدّة وأفسحت في المجال أمام الشعراء المجدّدين، فإذا بالشاعر الكبير سعيد عقل ينشر مأساته بنت يفتاح على صفحات المجلّة في ستها الثالثة والثلاثين[٤٣]، ويليه سواه من المجدّدين الكبار، أمثال: يوسف غصوب[٤٤]، وشبلي الملّاط في نماذج من تمثيليّته حسناء بيت فلوى أو يهوديت[٤٥]، وإلياس أبو شبكة بقصيدته «الوحوش»[٤٦] وحليم دمّوس[٤٧]، وسواهم.

أ.٣ - في ما يتعلّق بالنقد الأدبيّ، برهنت المشرق منذ أوّل عهدها أنّها سلكت مسلكًا حديثًا نأى عن التقريظ التقليديّ الفارغ أو العموميّات. ولا عجب في ذلك إذا ما تذكّرنا أنّ شيخو هو مصنّف كتاب علم الأدب بجزءيه علم الإنشاء والعروض (١٨٨٩)، وعلم الخطابة (١٨٩٠)، وقد

---

(٤١) مثلًا: «النهضة الأدبيّة في طرابلس»، بقلم جرجي يني (٣٥: ٣٧١-٣٧٥)؛ «بعض مظاهر الشعر العصريّ: الشعر التمثيليّ»، بقلم فؤاد أفرام البستانيّ (٢٨: ٨٥٥ وما يليها)؛ «الأدب وتطوّره في جبل عامل»، للشيخ عليّ الزين (٤٠: ٢٩-٦٠)؛ «مظاهر الأدب في جبل الدروز»، لسعيد أبو الحسن (٤٠: ٦١-١٢٤)، إلخ...

(٤٢) أطلب مثلًا قصائد الخوري رفائيل البستانيّ، أستاذ الأدب العربيّ في مدرسة الحكمة البيروتيّة: ١١ (١٩٠٨): ٨٩٩-٩٠١؛ ١٣ (١٩١٠): ٥٩-٦٢؛ ٢٠ (١٩٢٢): ٢٤٥-٢٤٦...

(٤٣) المشرق ٣٣ (١٩٣٥): ٢٢٤-٢٦١.

(٤٤) م.ن. (كانون الأوّل ١٩٤٤)، ص ٢.

(٤٥) م.ن. (كانون الثاني ١٩٤٥)، ص ٢٣-٣٠.

(٤٦) م.ن. (تشرين الأوّل ١٩٤٥)، ص ٣٩-٤١.

(٤٧) «النزّة» م.ن. ص ٥٣-٥٥.

تجلّى في تأليفه هذا سلامة ذوقه ورهافة حسّه على ما طُبع عليه من روح علميّة موضوعيّة صارمة. ويتأكّد ذلك للقارئ لدى مطالعة بعض مقالات شيخو النقديّة، كمثل ما قاله في تعريفه ديوان شعر الرصافيّ[٤٨]، إذ يطرب علّامتنا لما يستشفّه من رقّة أحاسيس تتجلّى في أبيات الشاعر البغداديّ، وينوّه به وبدواوين سواه من العصريّين الذين جاء شعرهم وفيه «رونق جديد مرتديًا بثوب قشيب يتدفّق رقّةً ويستفيض حسنًا، فترى المسلمين والنصارى يتبارون في هذا الميدان ويأتي كلّ شاعر بما لم يدُر على الحسبان»[٤٩]. ونظرة شيخو إلى الشعر هي نفسها نظرة إخوانه اليسوعيّين. فها هوذا الأب خليل إدّه[٥٠] يقول في ختام مقال له حول الشعر: «لو رسخ في عقول كثيرين أنّ الشعر أو البلاغة غايتها إبراز الجمال، وأنّ الجمال مبنيّ على الحقيقة، لما بذلوا جلّ مسعاهم في استنباط غرائب المعاني»[٥١].

ويلفت النظر في قول الأب إدّه تركيزُه، إلى جانب الجمال، على الحقيقة. فالجمال والحقّ متلازمان في موقف اليسوعيّين من الأدب، وهو طبيعيّ عند أُناس يؤمنون، في خطى الفلسفة اليونانيّة، بأنّ الجمال والحقيقة والصلاح ثلاثة وجوه لواقع واحد هو، في النهاية، سيّان والله. ومن هذا المنطلق أولَت المشرق الناحيةَ الخُلُقيّة في ما تناولته بالنقد، أهمّيّة كُبرى. فعلى سبيل المثال، وبالعودة إلى مقال شيخو في شعر الرصافيّ، لم ينسَ الراهب اليسوعيّ أن يُشير إلى أنّه يتمنّى لو تُنزع من الديوان «بعض الأوصاف العشقيّة التي، وإن لم تبلغ المجون وخرق الآداب، من شأنها أن تُثير في مخيّلة الصغار أهواء القلب الباطل»[٥٢].

لكنّ نقده اللطيف هذا يتحوّل غضبًا عارمًا عندما يواجه، في المقال نفسه، بعض ما كتبه أمين الريحانيّ، فينهال عليه نقدًا لاذعًا لقاءَ ما كاله

---

(٤٨) المشرق ١٣ (١٩١٠)، ص ٣٧٩-٣٩٢.

(٤٩) م.ن. ص ٣٨٠.

(٥٠) هو شقيق رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة الراحل إميل إدّه (١٨٨١-١٩٤٩).

(٥١) المشرق ٧ (١٩٠٤)، ص ٨٢٦.

(٥٢) م.ن. ١٣ (١٩١٠)، ص ٣٨١.

هذا الأديب من التهكّم بالقِيَم التي يؤمن بها شيخو وبالله. ولمّا كان الريحانيّ يشبّه الناسَ أمثاله بالجرذان القابعين في قبو هذه الدنيا المظلم لا يعرفون الغاية من وجودهم، نعته صاحب المشرق، في ختام مقاله، بـ «الجرذون الأكبر»، «وهو الاسم الذي اختاره لنفسه، فليتمتّع به»[٥٣].

ولئن شدّد الأب شيخو في نقده الأدبيّ على الناحية الأخلاقيّة، ومثله فعل لاحقًا زميله الأب رفائيل نخله في مقالاته النقديّة الكثيرة، (المشرق ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢)، إلّا أنّ المجلّة اليسوعيّة فتحت صدرها لغير أسلوب مؤسّسها، وراحت أقلام عدد كبير من الأدباء المعاصرين تتناول الحديث عن الأعمال النثريّة والشعريّة بأسلوب لا يهمل النواحي الإنسانيّة بدون أن يركّز شديد التركيز على الخُلُقيّات. من هذه الدراسات القيّمة نذكر، مثالًا لا حصرًا، مقالات فؤاد أفرام البستانيّ «في الشعر العصريّ»[٥٤]، مقالة سعيد عقل في يوسف غصوب[٥٥]، وجان عزيز في أفاعي الفردوس لأبي شبكة[٥٦]، وعن أبي شبكة أيضًا مقالًا للأب ميشال حايك[٥٧]، وبقلم حايك أيضًا دراسة في شعر فوزي المعلوف بليغة العنوان كسابقتها[٥٨]، ودراسة لعارف تامر بعنوان «الغزل في شعر مزيد الحِلّيّ الأسديّ»[٥٩].

---

(٥٣) المشرق ص ٣٩٠. – أطلب أيضًا ما قاله شيخو على هذا النحو في نقد «بدائع جبران خليل جبران وطرائفه»، في المشرق ٢١ (١٩٢٣): ٤٨٧-٤٩٣؛ ومقالات أمين خالد الكثيرة في الأديب المذكور (٣٠: ٤٢٥ وما يليها؛ ٣١: ١٠٨ وما يليها). وممّا عابه خالد على صاحب النبيّ ويسوع ابن الإنسان «أنّ تغلّب الحبّ الغريزيّ في أهمّ مؤلّفات جبران بل في أدبه بوجه الإجمال – وإن كان ضروريًّا للفنّ – فهو غير كافٍ لخلود شيء من هذه المؤلّفات على مدى السنين، لأنّه ينقصها ركن مهمّ من أركان البقاء الفنّيّ وهو عنصر الأفضليّة الأخلاقيّة» (م.ن. ٣٠: ٥٢٢).

(٥٤) م. ن. ٢٥ (١٩٢٧)، ص ٥٤٣-٥٥٠، ٦٢٢-٦٢٥، ٦٧٢-٦٨٦.

(٥٥) م.ن. ٣٥ (١٩٣٧)، ص ٣٩١-٤٠٠.

(٥٦) م.ن. ٣٦ (١٩٣٨)، ص ٥٠٩-٥١٢.

(٥٧) «الحبّ الصاعد في نفس أبي شبكة»، م.ن. ٤٥ (١٩٥١)، ص ٢٩٢-٣١٧.

(٥٨) «قلق الحدود في شعر فوزي معلوف»، م.ن. ص ٤٧٩-٤٩٨.

(٥٩) م.ن. ٥٠ (١٩٥٦)، ص ٤٤٩-٤٦٥.

أ ـ ٤ – الروايات الخياليّة. لمّا انطلقت المشرق سعت إلى تنويع أهدافها ما أمكن لتصيب عدّة عصافير بحجر واحد. وممّا قاله شيخو في مقاله الافتتاحيّ (١٨٩٨، ص ٤): «ولمّا كانت غايتنا أن نجمع في هذه المجلّة بين الأمور المفيدة والمبهجة معًا، أحيينا أن نفرد بعض صفحات لروايات خياليّة نتّخذها وسيلة لتفكيه المخيّلة وطريقة لتمثيل عوائد الأمم المختلفة في أحوالها وتواريخها ورسم تخومها ووصف آثارها». ولن نعجب من لجوء مجلّة رصينة كالمشرق إلى مثل هذا النوع الأدبيّ، إن نحن تذكّرنا أنّ جميع المجلّات الأدبيّة في نهاية القرن الماضي كانت تنحو المنحى ذاته لعدّة أسباب: منها الحاجة إلى إرضاء شريحة من القرّاء كانت، مع افادتها من المقالات العلميّة الموثّقة، ترتاح إلى ما هو أقلّ تبحّرًا منها وأسهل منالًا؛ ومنها ندرة الروايات في الأسواق؛ ومنها فوائدها للتثقيف المبسّط كما بيّنها شيخو في ما سبق.

ومن هذا المنطلق أخذت المشرق تنشر بتواتر روايات جمعت إلى التشويق والطرافة الفائدةَ الأدبيّة والأخلاقيّة. وسعت، من خلال جودة ما تقدّمه، إلى منافسة ما يُنْشَر في الأسواق من الروايات التي لا ترتقي إلى المستوى المطلوب، علمًا أنّ اليسوعيّين في ذلك الزمن، شأنهم شأن الكثيرين من رجال الدين والدنيا معاصريهم، كانوا متشدّدين من جهة الخُلُقيّات. ولنا في ما كتبه الأب أميدِي لُوريول في أوائل السنة الأُولى من المجلّة، خير تعبير عن رأي إخوانه في هذا المجال[٦٠]. فممّا كتبه أنّه «إذا كان بين الروايات الخياليّة هذا العدد اليسير الذي يُؤْمَن على قارئه من الخطر، فإنّ العدد الأكبر، لسوء الحظّ، خطر جدًّا»، «فالروايات الخياليّة تبلبل المخيّلة وتفسدها» و«لا تكترث لما يُشير إليه العقل الصائب والذوق السليم، كما أنّها تمجّ وصايا الأدب وحسن النظام». و«لا يتصّل قرّاء هذه الحكايات المختلفة بقولهم إنّهم بمطالعتها يصرفون فقط بعض أوقاتهم ببهجة وهناء. فنقول إنّه لمن

(٦٠) المشرق ١ (١٨٩٨)، ص ٤٦٣-٤٦٥، ٦٥٢-٦٥٧ بعنوان «في الروايات الخياليّة».

المستحيل أن لا يبقى لهذه القراءة أثر سيئ في نفس قارئها». وعليه، فالمطلوب «من أرباب المدارس ومن الوالدين المسيحيّين أن يتلافوا هذا الشرّ العظيم» ويحبّبوا إلى أبنائهم «مطالعة الكتب الأدبيّة الصالحة وتآليف العلوم الراهنة والأسفار والتواريخ الصادقة التي تنشّط الهمم وتبعث القرائح إلى معالي الأمور وشريف الأعمال»[٦١]. وقد ساهم في إنشاء روايات المشرق الهادفة، مدّةً أربت على ربع القرن، عدد كبير من الكتّاب، مدنيّين ودينيّين، بينهم علماء وقورون من أمثال الآباء لامنس، وأنطون ريّاط، وشارل أبيلا، وشيخو نفسه، وبشارة خليل الخوري الذي أصبح لاحقًا أوّل رئيس جمهوريّة في لبنان المستقلّ.

وبعد وفاة المؤسِّس، تابع المسيرة تلميذه فؤاد أفرام البستانيّ، ولكنّ الروايات التي نشرها نَحَت المنحى التاريخيّ، وسرعان ما توقّفت المشرق عن معالجة هذا الفنّ في منتصف الثلاثينيّات بسبب تبدّل الذهنيّات من جهة، وعدم الحاجة بعد ذلك إلى نشر القصص الهادفة لتوفّرها بين أيدي القرّاء من جهة أخرى[٦٢].

ب – «المشرق» والعلم: ترقية العلوم والروح العلميّة

ب.١ – كما اهتمّت المشرقُ بالأدب وفنونه، وجّهت اهتمامها أيضًا إلى العلوم كافّة بغية إعلاء شأنها في الشرق، سواء الإنسانيّة منها كالتاريخ والجغرافيا والاجتماع، أو الطبيعيّة منها والفيزيائيّة والرياضيّة.

أمّا العلوم الإنسانيّة فيجدر التركيز فيها على التاريخ، إذ أولته المجلّة كلّ رعاية لأنّه من الأهمّيّة بمكان لبنيان حاضر البلاد المشرقيّة ومستقبلها، وظلّت إلى اليوم تفرد لهذا الباب عددًا وفيرًا من صفحاتها.

وأمّا العلوم البحتة فتبدّلت نظرة المجلّة إليها بتبدُّل الزمان

---

(٦١) المشرق ص ٦٥٦-٦٥٧.

(٦٢) وثمّة استثناء حصل، إذ نشرت المجلّة في المدّة التي اتّشحت بحلّة مجدّدة في أواخر الحرب الكونيّة الثانية، قصّة بقلم الروائيّ الكبير كرم ملحم كرم عنوانها «جهاز العروس» (المشرق، كانون الثاني ١٩٤٥، ص ٤٩-٦٣).

والأحكام. في البدايات كانت الحاجة ماسّة إلى نشر المعلومات، وحذت المشرق حذو المجلّات العلميّة الرصينة من أمثال المقتطف، فقدّمت إلى قرّائها الكثير الكثير من المقالات العلميّة في كلّ باب، يحرّرها اختصاصيّون مشهود لهم بالكفاية كالأب زُمُّوقِن في الجيولوجيا، والأب لويس رُونزفال ووديع صبرا في الموسيقى الشرقيّة، والأب إسكندر طوزّان في علم الحيوان، وسليم أصفر في الزراعة، وعدد من الأطبّاء النطاسيّين الأدباء في علم الصحّة، كالدكاترة أمين الجميّل وشاكر الخوري ونابوليون ماريتي وحبيب درعونيّ. ولمّا تقدّم تلقين العلوم والمعارف في المدارس، وخفّت الحاجة إلى أن تعالج مجلّة جامعة كالمشرق ما كانت تعالجه في هذا الباب للتعميم، رأت أن لا تتابع في هذا الخطّ، اللّهمّ إلّا إذا استجدّت موضوعات حسّاسة ينبغي التوقّف عليها. ومن الدراسات التي تطرّقت إلى العلوم المستحدثة في السنوات المتأخّرة، ما كان بقلم الأب فرنسوا دوبره لاتور، عميد كلّيّة الطبّ اليسوعيّة في بيروت والدكتور في الفيزياء وفي الطبّ البشريّ، حول «تحويل المادّة إلى طاقة والطاقة إلى مادّة في المختبر والكون»[٦٣]، والأب شارل نيرُون حول «العناصر النزرة في كيمياء الأحياء»[٦٤]، والأب برتلماوس كُوجُوي بعنوان «عندما الأرض تهتزّ...»[٦٥]، والأب جاك بلاسّار الفلكيّ مدير مرصد اليسوعيّين في كسارة (قرب مدينة زحلة) بعنوان «تاريخ عيد الفصح: ما رأي العلم فيه؟»[٦٦].

ب.٢ - ولم تقتصر المشرق على تعميم العلوم وتوفير المعلومات، بل اجتهدت دومًا لتُشيع الروح العلميّة في ما تقدّمه من أبحاث. وعلى الرغم من أنّ شيخو بالَغ في عدد من استنتاجاته في ما يتعلّق بنصرانيّة

(٦٣) المشرق ٤٦ (١٩٥٢)، ص ٣٤٩-٣٥٨.
(٦٤) م.ن. ٤٨ (١٩٥٤)، ص ٢٠٤-٢٠٧.
(٦٥) م.ن. ٥٢ (١٩٥٨)، ص ٦٠٥-٦١٢.
(٦٦) م.ن. ٦٦ (١٩٩٢)، ص ٤٥٥-٤٦٠.

بعض الشعراء الجاهليّين[٦٧]، إلّا أنّه دَرَج ومعارفيه على مراعاة الدقّة في التنقيب، والأمانة في الرجوع إلى المظانّ، والصرامة في قبول الروايات وإبداء الأحكام. وقد غدت بعض مؤلّفاته التي أطلقها مقالاتٍ متسلسلة في مجلّته قبل جمعها ونشرها في مجلّدات مكتملة، مَراجعَ لا مندوحة عنها لكلّ باحثٍ وطالبِ علم. ويسري القول نفسه على مقالات هنري لامنس في التواريخ اللبنانيّة والعربيّة، وقد رأينا في أعلاه تقريظ الأب مرمرجي أسلوبَه العلميّ[٦٨]. ولا بأس من إيراد ما كتبه أحد كبار المستشرقين الإيطاليّين، جوزبّي (يوسف) غبريالي، ممتدحًا مقالات الأب سبستيان رونزفال في الزبّاء ملكة تدمر وبعض الكتابات التدمريّة[٦٩]. قال ما تعريبه: «في سبيل الدراسات التاريخيّة ولتسهيل عمل الدارسين... نرجو أن يتفضّل الأب العالِم رونزفال فينقل هو نفسه إلى إحدى اللغات الأوروبيّة رسالته القيّمة، مستعمِلًا أيضًا الكتابات التدمريّة الأخرى الاثنتي عشرة التي نشرها وأبرزَها بكلّ ما أُوتي من علم وسيع في المشرق السنةَ الماضية»[٧٠].

ج – وماذا الآن عن «المشرق» والفنّ؟ فما يلفت النظر أنّ المجلّة لم تولِ هذا الباب في مطلع عهدها ما كان يُنتظَر أن توليه صحيفة ثقافيّة مثلها. ونعني بالفنّ التعبير عن مُثُل الجمال من خلال الإنجازات البشريّة التي تسمو بالنفس فتثقّفها وتنعشها. فلويس شيخو لم يكن من المولَعين

---

(٦٧) أطلب سلسلة أبحاثه في هذا الشأن في المشرق ١٣ (١٩١٠)، ص ٧٨١ وما يليها؛ ونقدنا بعض مواقفه وتعديلها في كتابنا *Louis Cheikho et son livre «Le christianisme et la littérature chrétienne en Arabie avant l'islam»*, Dar el-Machreq, Beyrouth, 1967؛ ومقالنا في المشرق: ٦٤ (١٩٧٠)، ص ٢٩٧–٣٢١: «الأب لويس شيخو وشعراء النصرانيّة في الجاهليّة».

(٦٨) أطلب الحاشية ٣٣.

(٦٩) م.ن.، ١ (١٨٩٨)، ص ٤٣٣ وما يليها.

(٧٠) «Nell'interesse degli studi storici e per comodità degli studiosi(...) ci auguriamo chè il dotto padre Ronzevalle voglia lui stesso tradurre in qualcuna delle lingue europee la sua pregevolissima Memoria, utilizzando anche le altre dodici iscrizioni palmirene da lui publicate ed illustrate con tanta erudizione nel Mashriq dell'anno passato» (Giuseppe Gabrieli, *Rivista Bibliographica Italiana*, 1899).

بالفنّ ويبدو أنّه لم يكن حتّى من الملمّين به، فهو رجل علم وعمل، لا بل رجل عمليّ. لذا نرى أنّ غالبيّة المقالات التي عالجت في البدايات فنًّا معيّنًا، إنّما كانت تدرس الفنون، من حيث هي إنجازات عمليّة أقرب ما تكون إلى الحِرف والصناعات. فحُرِّرت دراسات حول «فنّ الملاحة في الشرق» (١: ٢١٧)، و«ترقّي فنّ الحرب البحريّة» (١: ٥٢٩)، و«ترقّي فنّ المناطيد» (٤: ١٠٩)، و«أصل فنّ الصيدلة في المشرق» (٢: ٨١) إلخ... كما نُشرت دراسات في مثل هذا النوع من «الفنون» أو الصنائع من دون أن تُطلَق عليها تلك التسمية جهارًا، فكانت مقالات في «السيوف الشرقيّة» و«صناعة الجوهر» و«الحياكة» و«القصب» و«التجارة» و«السجّاد» و«سكب الأجراس»، إلى ما هنالك من الصناعات التي تتطلّب، بدون شكّ، مهارات فنّيّة. وللمشرق في نشر مثل تلك الأبحاث فضل في تسليط الأضواء على نواح من التراث الشرقيّ لمعرفته وإحيائه وصونه.

أمّا الفنون بالمعنى الأكثر شيوعًا، أي «الفنون الجميلة»، ومنها الفنون التشكيليّة، فكان نصيبها في المجلّة محدودًا جدًّا، لا سيّما في العقود الأُولى. ولئن خُصّصت بعض المقالات بـ «فنّ التمثيل» (٢: ٢٠ وما يليها، ٤٣: ١١٨)، و«فنّ البناء في آخر القرن التاسع عشر» (٢: ٦٦)، و«الموسيقى عند العرب» (٧: ٨٤٣)، فلا أثر يُذكر لدراسات حول الرسم أو النحت أو الرقص، اللّهمّ إن استثنينا، في السنوات التي عقبت وفاة المؤسِّس، مقالة مشفوعة بالرسوم للأديب الذوّاقة يوسف غصوب بعنوان «يقظة الفنّ في لبنان، نظرة في معرض التصوير والنقش» (٢٩: ٨٥-٩١)، ومقالة مصوّرة من تحرير «فريق من ذوي الاختصاص» عالجت «مظاهر الثقافة الفنّيّة في لبنان» (٣٩-١٩٤١: ٣٠٩-٣٢١)، وأُخرى مصوّرة أيضًا وبقلم الصحافيّ رشدي المعلوف وعنوانها «معرض الفنون الجميلة في المتحف اللبنانيّ» (٤١-١٩٤٧: ١١٦-١٣٦)، يضاف إليها أربع مقالات أو خمس حول الفنّ المسيحيّ والفنّ الإسلاميّ عامّةً.

مقالات تنتقد الشعارات الرنّانة وما يواكبها من أفكار ملتبسة[٧٥]، ونبّه، مع سواه من كتبة المشرق، إلى مخاطر الاستيطان الصهيونيّ في أرض فلسطين[٧٦]. وكانت لهجته تقسو إذا ما لمس عند الخصم تهجّمًا ينمّ على احتقار يطعن الدين في الصميم، أو إذا ما خُيّل إليه أنّ الإساءة مقصودة. من ذلك سلسلة مقالاته في الماسونيّة التي عنوانها «السرّ المصون في شيعة الفرمسون»[٧٧]، ونقده ريحانيّات أمين فارس الريحانيّ[٧٨]، و«بدائع جبران خليل جبران وطرائفه»[٧٩]. إلّا أنّ المجلّة ظلّت على مرّ عهودها تراعي آداب الجدال بموجب المسلكيّة التي أكّدها شيخو نفسه في إحدى افتتاحيّاته قائلًا: لئن «ألجأتنا الذمّة إلى معاكسة (بعض المبادئ) الفاسدة، إلّا أنّنا في هذه المجادلات لم نخرج عن الخطّة التي تحرّيناها ونتحرّاها إن شاء الله في كلّ آن، وهي مراعاة آداب الجدال، فنفنّد المزاعم الباطلة ونقطع النظر عن الأشخاص»[٨٠]. ولقد اعترف خصوم شيخو أنفسهم بنزاهته من هذا القبيل، وكان الماسون في طليعة مَن كرّموه يوم احتُفل بيوبيله الخمسينيّ، ويوم شُيّع إلى مثواه الأخير[٨١].

ج – ولم تقتصر المشرق على الدفاع عن الدين وتعاليمه، بل عالجت الكثير من الموضوعات الفكريّة والاجتماعيّة معالجةً إيجابيّةً بنّاءة، نذكر

---

(٧٥) أطلب مثلًا دراسته في ما أسماه «الألفاظ السحريّة»، أي الحرّيّة والمساواة والإخاء، في المشرق ١١ (١٩٠٨)، ص ٧٨٧-٧٩٥، ٨٦٣-٨٧٠، ٩٣٢-٩٣٨.

(٧٦) راجع: «الصهيونيّة وغاياتها»، بقلم فرانسس كزانيه (م.ن. ٢٣-١٩٢٥: ١١٧-١٢٤) و«الصهيونيّة، ماضيها وحاضرها ومستقبلها»، بقلم لويس شيخو (م.ن. ١٨-١٩٢٠: ٧٦٨-٧٧٨).

(٧٧) المشرق ١٤ (١٩١١): ٥٧ وما يليها، وقد جُمعت تلك المقالات في كراريس ثمّ في كتاب أُعيد طبعه وما زال حتّى يومنا (مزوّرًا... بالطبع!).

(٧٨) م.ن. ١٣ (١٩١٠)، ص ٣٧٩-٣٩٢ و٧٠٣-٧١٠.

(٧٩) م.ن. ٢١ (١٩٢٣)، ص ٤٨٧-٤٩٣.

(٨٠) م.ن. ٣ (١٩٠٠)، ص ٣.

(٨١) H. Lammens, «Le Père Louis Cheikho», dans *Lettres de Fourvière*, Lyon, 1929 pp. 276-277; 280; G. Levens, «Le Père Louis Cheikho», dans *Relations d'Orient*, Paris - Beyrouth, 1927, pp. 140-141.

قليلًا منها على سبيل المثال لا الحصر: «الوطنيّة» (١٨٩٨: ٢)، «المحبّة ودواعيها» (١٨٩٩: ٨٣٦)، «المدارس والهيئة الاجتماعيّة» (١٩٠٨: ٦٩٣)، «أخطار المهاجرة» (١٩٢٤: ٧٢٨). وتجدر الإشارة في هذا الباب إلى التطوّر اللافت مع الأيّام في انفتاح المجلّة على تيّارات كانت بالأمس تناصبها الخصومة. ففي العام ١٩٣٠ نشرت المشرق مقالًا بعنوان «العلم والدين» حرّره أستاذ الرياضيّات العالية في جامعة بيروت الأميركيّة، العالِم منصور حنّا جرداق. وممّا قاله الكاتب إنّ ميدان كلّ من العلم والدين مختلف عن الآخر، «ولكنّ العالَم المادّيّ ليس كلّ شيء في الكون بل هنالك العالم الروحيّ الذي هو أعظم وأسمى وأشرف، وأنّه لا نزاع بين العلم الصحيح والدين الصحيح»[٨٢]. لقد ولّت الأيّام الأوائل التي شهدت مجادلات شيخو وأصحاب الهلال والمقتطف، خرّيجي الكلّيّة الأميركيّة المذكورة، وها إنّ مجلّة اليسوعيّين تلتقي، في مسيرة جديدة، خصوم الأمس البعيد.

د – والانفتاح الفكريّ الذي نشّدّته المشرق أكثر فأكثر بمرور الزمن، كان دأبها منذ البدايات في شؤون ملاقاتها المذاهب الدينيّة الأُخرى. فعلى الرغم من انتفاء الروح المسكونيّة في مطلع قرننا العشرين، لم تنجرف مجلّة شيخو إلى مستنقعات المجادلات الدينيّة، لعدم جدواها أوّلًا، ثمّ لاحترام الراهب الفاضل آراء سواه، مهما اختلفت، عميقَ الاحترام. وكان ذلك واضحًا من خلال ذكره الشخصيّات الأرثوذكسيّة أو المسلمة التي يتكلّم عليها، ومن خلال نشره مقالات لعدد من تلك الوجوه[٨٣]. وممّا ينبئ بذلك الموقف المعتدل، مقالةُ شيخو التي عَنْوَنها «الدين لله والوطن للجميع»، حيث بيّن أنّ الدين الحقّ لا يفرّق، بل يوحّد ويبني حتّى في ميدان السياسة، ولبلوغ ذلك «لا يحقّ لمسلم أو لنصرانيّ أو

---

(٨٢) المشرق ٢٨ (١٩٣٠)، ص ٤٢١.

(٨٣) م. ن. ١ (١٨٩٨)، ص ٨٦٥...؛ المرّة الوحيدة التي خرجت فيها المجلّة عن قاعدتها كانت يومَ اضطرّت إلى دحض مقال للأرشمندريت فوتيوس ذهب فيه مذهب بِكال في كتابه البروتستيال، ولم تخرج، مع ذلك، على أدب الردّ الرصين: المشرق ٢٥ (١٩٢٧)، ص ٥٦١-٥٦٨.

درزيّ أن يدّعي بحقوق عموميّة لمجرّد كونه مسلمًا أو نصرانيًّا أو درزيًّا»[٨٤].

لكنّ موقف الاحترام هذا الذي وقفته المشرق من سائر المذاهب، لم يتعدَّ في الماضي، على العموم، مجال المجاملة المهذّبة. ومع تقدّم السنين، أخذت المجلّة تشرّع المزيد من صفحاتها للموضوعات التي تعنى بالمسكونيّات أو الإسلاميّات، كما تفسح في المجال أمام عدد أكبر من الكتّاب غير الكاثوليك وغير المسيحيّين[٨٥]. وقد أحصينا في المجلّدات الخمسة والعشرين الأخيرة التي صدرت بين ١٩٥١ واليوم، بضع عشرة مقالة تعالج شؤونًا مسكونيّةً أو إسلاميّة، كما أنّه نُشِر على صفحات المجلّة عدد كبير من المخطوطات الإسلاميّة من مثل الرسائل الصغرى لابن عبّاد الرنديّ، نشرها العلّامة المرحوم الأب بولس نويّا، وأعلام الهدى وعقيدة أرباب التُّقى لشهاب الدين السّهروَرْديّ، نشره المطران عبده خليفة، وختم الأولياء للترمذيّ، نشره عثمان يحيى. ولئلّا نطيل في العرض والتعداد من هذا القبيل، نكتفي بإبراز الروح التي تسود الآن مسيرة المشرق والتوجّهات التي تنطلق بموجبها. فإنّنا نستشفّ هذه التوجّهات وتلك الروح من المقالة التي صدرت في المجلّة، وبقلم كاتب هذه الأسطر، منذ نحو أربع سنوات، وكان عنوانها «الحوار الإسلاميّ المسيحيّ في لبنان: محاولات عابرة أم إنجازات ثابتة؟»[٨٦]. وقد خلصنا في ختام المقال، وبعد رصد الوقائع، إلى ما يلي:

- لقد كُتب على المسيحيّين والمسلمين في لبنان (وبالتالي في المشرق) أن يعيشوا معًا أبناء وطن واحد.
- على كلّ من الأبناء أن يتنبه إلى الآخر بالحوار والاحترام والقبول بالتعدّديّة، والانتقال من العيش قرب الآخر إلى العيش مع الآخر.

---

(٨٤) المشرق ٢٤ (١٩٢٦)، ص ٤٧٨.
(٨٥) أطلب، مثلًا، الجدول في الصفحة ٢٤.
(٨٦) م. ن. ٦٧ (١٩٩٣)، ص ٣١٥-٣٢٨.

- ليست المسيحيّة والإسلام طائفتَيْن، بل هما رسالتان، على كلّ منهما أن تسعى لا إلى المظاهر السلبيّة وإبراز الفوارق بقدر ما تبتغي التقريب والتلاقي والعمل المشترك.

هذا لَعَمْري ما تصبو إليه المشرق في دعوتها إلى الحوار الإسلاميّ المسيحيّ. وهذا ما ترجوه أيضًا على جميع الصعد الفكريّة، كما نوّه بذلك رئيس تحريرها في مقاله «المسيحيّة والحداثة. الحوار في الغرب والنزاع في الشرق؟»[٨٧]. قال الأب سليم دكّاش: «إنّ الكنيسة، ومعها المسيحيّون الذين يمتلكون الكثير من أدوات الحداثة وأساليبها، مدعوّة اليوم إلى مراجعة ذاتيّة نقديّة، لمناسبة انعقاد السينودس من أجل لبنان، تكون مقدّمة لوضع مشروع حياتيّ متكامل يؤالف بين معطيات الحداثة والمعتقدات الأساسيّة في الإيمان المسيحيّ. إنّها الدعوة إلى حدث يشارك فيه الجميع من حضارة متقدّمة، حضارة تتآلف فيها الروح والمادّة»[٨٨].

الخاتمة

مائة سنة من عمر المشرق مضت، والمجلّة، بعونه تعالى، تتابع المسيرة على الرغم ممّا اعترضها من صُروف الدهر وغِيَرِه. مائة حَولٍ قد تهدّ حولَ الأجسام، لكنّها، بأزر المولى، لم تُعدَم معها صحيفتُنا القوّة على المضيّ قدمًا، لا بل سعَت جهدَها للترقّي صُعُدًا. فهل أفلحت؟ إنّما الحكم لقرّائها والتاريخ. إلّا أنّ ما نلاحظه من حرص كُبريات خزائن الكتب، وأئمّة البحث، وصفوة المثقّفين، على اقتناء مجلّداتها التي يربو عدد صفحاتها على الخمسين ألفًا، لَممّا يؤكّد أنّ المجلّة أدّت دورًا لا

(٨٧) المشرق، ص ٢٩٥-٣١٤.
(٨٨) م.ن. ص ٣١٤.

يُستهان به ولها رسالة عليها أن تتابعها. فقد أراد شيخو وإخوانه أن تكون صحيفتهم في خدمة مثقّفي بلادنا يجدون فيها أجوبةً عن تساؤلاتهم، فإذا بالوقائع تشهد أنّ المشرق باتت أشبه بموسوعة، لا بل خزانة مكتملة الأبواب، توفّر للباحثين من جميع المستويات أشمل المعلومات وأدقّها في كلّ مَطْلَب. وقد أريد للمجلّة أيضًا أن تكون في خدمة الشرق، فخدمَتْه بالفعل الخدمةَ النّصوح، وساهمت في نهضته منذ تباشيرها، وأعطت العالم، لا سيّما الغربيّ منه، صورةً مشرِّفة عن الشرق وما يمكنه أن يؤدّيه في سبيل الحضارة[٨٩]. فعسى أن تظلّ المشرق منارة، وإن متواضعة، تستمدّ نورها من «رحمة إلهنا الذي افتقَدَنا بها المُشْرِقُ من العلاء»[٩٠].

(٨٩) كتب العلّامة بَرْبِيه دو مينار في المجلّة الآسيوية بُعَيد ظهور المشرق ما مفاده: إنّ ما دفع جامعة (اليسوعيّين) في بيروت إلى إصدار مجلّتهم الجديدة، هو الرغبة في بثّ روح المنافسة الشريفة المثمرة، والمساهمة، مع أرباب العلوم الأوروبيّين، في تقدّم الثقافة في الشرق. فهل يجوز أن تظلّ نهضة البلاد التي كانت يومًا مهدَ الحضارة، وثقًا على الغرب؟ «La pensée dont s'est inspirée l'Université de Beyrouth en créant ce nouvel organe, est une pensée de noble et féconde émulation, désir de concourir avec la science européenne au progrès de la culture intellectuelle de l'Orient. Pourquoi le relèvement des contrées qui ont été le berceau de la civilisation resterait-il le privilège exclusif de l'Occident?» A. Barbier de Meynard, *Journal Asiatique*, mars - avril 1898, p. 345.

(٩٠) إنجيل لوقا ١: ٧٨.

صدر عن دار المشرق